أوراق الأيام

للدكتور يحيى الخشاب

مدير الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية

قرأت فى كتاب « أوراق الأيام » لجناب شهاب الدين ، الطبيب التركى الذى اشتهر بالأدب فى مطلع القرن العشرين ، ما يلى :

إن القعود فى نظر أكثريتنا خير من الوقوف والرقود خير من القعود ومن يعلم ؟ لعل الموت نتيجة الرقود ! أليس ياترى فى تكوين أفكارنا ومشاعرنا نصيب من المسئولية للطبيعة المحيطة بنا ؟ هلا يمكن فى الشرق الجميل إلا تنويم الروح على عرش الشعر والخيال ، بينما الآمال المحرقة والشاقة والمسرعة تتولد خلال الآفاق الخسيسة ؟ .. أمعنوا النظر فيما حولكم : حيث المجهود يبذل للدنيا فأنتم فى الغرب ، أما الشرق ، الذى هو مهبط الأديان ، فقد تعلقت الأنظار فيه بالسماء وبالآخرة فقط ، كما أن الأيدى فيه بقيت فى وضع الدعاء ! نحن متغافلون جميعا أو غافلون عن سر الدستور القائل : « ليس للإنسان إلا ما سعى » !

قرأت هذا لأديب الترك العظيم الذى أخذ يتناول عيوب المجتمع الإسلامى وتأثره بآراء الغرب فى التيارات الفكرية التى سادت على الألسن فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

والكاتب على حق فيما يذهب إليه ، ولكن الإلحاح فى ذكر المثالب كالإلحاح فى إسداء النصح ، قد يزيد الهمم تثبيطا وقد يدفع إلى العصيان بدلا من أن يقرب إلى الهداية .

وذكرت وأنا أقرأ كلام الكاتب التركى حادثة قريبة فى لد إسلامى هو إيران وقعت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حادثة جديرة بأن نلتفت إليها

وأن نشيد بها لدلالتها على أن الأمة الإسلامية أمة صاحية وليست ميالة إلى القعود أو الرقود .

كانت الأسرة القاجارية تحكم إيران ، وكان ناصر الدين شاه يقترب من الغرب فى نزعاته ونزواته ، وكان الاستعمار الأوربى يتنافس فى كسب ميدان له فى إيران وكان نظام الامتياز قد سرت عدواه من تركيا ومصر إليها . وأقبل الاستعمار الإنجليزى على إيران ويده اليمنى ممدودة بالجنيهات الذهبية ويده اليسرى ممدودة لتسلم امتياز جديد . وكان السلطان ناصر الدين شاه كأسماعيل فى مصر : نهما لا يشبع ، فأخذ يعطى الامتياز تلو الامتياز للشركات الإنجليزية ويقبض المال دفعة بعد دفعة فيتلفه فى البذخ واللهو والرحلات . . . إلى أن كانت صحوة الرأى العام فى إيران ، والرأى العام قد يبدو غير يقظان وهو يتوثب : وغضب كبير رجال الدين ، لأن الشاه باع امتياز الدخان لشركة إنجليزية ! ولسوف تربح هذه الشركة أضعاف ما دفعت ، ولسوف تستأثر وحدها بما كان يتقاسمه تجار الدخان الفرس ، ولسوف تستبد بالمدخنين وتفرض عليهم ما تشاء من الأسعار .

وذات صباح قرأ الناس فى الجرائد أن السيد الشيرازى ، كبير رجال الدين ، يقرر أن التدخين حرام على المسلمين . وتناقلت الألسن هذه الفتوى وسرت بين الناس بذرة صالحة فى تربة صالحة وعرضت الشركة الإنجليزية بضاعتها فى الدكاكين وأعلنت عنها فى الصحف ولكن ليس من يشترى منها . . وبارت البضاعة وأفلست الشركة .

وذهب المدير الإنجليزى إلى قصر السلطان يحتج على فتوى رجل الدين وعلى مقاطعة الشعب للدخان ، وكان السلطان يعيش فى واد والشعب يعيش فى واد ، فأنكر السلطان ما سمع من الرجل وقال له بل كلنا ندخن وإليك الدليل !

ونادى السلطان خادمه وطلب « الشيشة » ولكنه انتظر وطال الانتظار ، فلما عاود النداء أقبل الخادم وعلى شفتيه ابتسامة النصر وأجاب السلطان بأن سيدته كسرت « الشيشة » لأن شيخ الإسلام أفتى بأن التنباك حرام !

وأسقط فى يد السلطان ولم يستطع أن يكابر ، ولم يستطع أن يخرج على اجماع الأمة ، ورد ما أخذ من المال لمدير الشركة الإنجليزية واسترد وثيقة الامتياز .

فتوى شيخ الإسلام لقيت صدى فى نفوس المسلمين فجعلوا منها نبراسا لهم وضحوا فى سبيل وطنهم بأحب التسليات إلى نفوسهم ألا وهو التدخين ! ولو كان الفرس المسلمون يؤثرون القعود على القيام والرقود على القعود لما ضحوا بهذا الإجماع بمكيف تعودوا عليه ولم يكن من اليسير صرفهم عنه .

وكان شيخ الإسلام رائعا فى موقفه .

وقصة أخرى ذكرتها بعد أن قرأت كتاب الكاتب التركى العظيم جدت حوادثها فى إيران أيضا .

قال صديق ونحن نسير فى السوق بطهران وهذا المطعم لشمشيرى ألا تعرفه ثم أخذ يقص علىّ قصته فقال :

حين أعلنت الحرب الأخيرة كان صاحب هذا المطعم يملك فى مخازنه كميات ضخمة من الأرز ثم ارتفع ثمن الأرز فصار أضعاف ما كان ، وقل الأرز بطهران وكان التجار يبيعونه بثمن غال للناس . أما شمشيرى فقد التفت فى هذه الساعة التى دق فيها الثراء بابه دقا إلى شىء آخر غير الغنى التفت إلى الصناعة بالرزق الحلال . التفت إلى الفقير الذى لم يتضاعف أجره والذى تعود أكل الأرز كل وجبة كما تعودنا نحن أكل الخبز . وفكر شمشيرى فى هذا الفقير كيف يتأتى له أكل الأرز وأجره المحدود لا يكفى . وقرر الرجل أن يبيع الأرز فى مطعمه بالسعر الذى اشترى به قبل أن يرتفع ثمنه ، على ألا يطمع غنى فى مشاركة الفقير هذا الغذاء بالسعر الرخيص . وتكبد الرجل مشقة الوقوف بالباب فى كل وجبة حتى يمنع القادر من مشاركة الفقير .

وانقضت سنين الحرب ، وأثرى كثيرون ثراءً عريضاً .

قال صاحبى وهو يشير إلى عجوز قوى يقف كالأسد بجوار الموائد الممدودة : أنظر إليه لقد حباه الله القوة وهدوء النفس وغناها وبارك له فى رزقه فهو من أغنى رجال السوق .

هذه القصة لواحد من ملايين المسلمين عرفه الناس وهناك غيره بلا شك :

إن أصحاب النفوس الكبيرة كثيرون والخير أغلب ولكن الناس يتحدثون عن الفعل السيء وقلما يشيدون بالعمل الطيب .

* * *

وفى بلدنا ، هذا البلد الأمين ، عرفت أن شيخا من شيوخ الإسلام عاب على الملك المخلوع سلوكه فى كابرى ، وكان الشيخ يطالب بميزانية للأزهر تعين على أداء رسالته ووزير المال بها ضنين فسأل رجل الشيخ رأيه فى تصرف وزير المال فقال : تقتير هنا وإسراف هناك ! وسارت هذه الجملة على أفواه الناس ، وهلل رئيس الوزراء ونادى الشيخ يسأله ما يقصد ويحذره ويهدده بأنه قد يتعرض لأذى كبير ! فإن الملك إذا غضب فويل للمغضوب عليهم . قال الشيخ محتداً على رئيس الوزراء :

هل يستطيع الملك أن يمنعنى من أداء الصلاة ؟

قال رئيس الوزراء :

لا يقدر على هذا !

قال الشيخ :

إذاً خذ هذه الاستقالة ودعنى أعبد ربى !

هذا الشيخ ، الشيخ عبد المجيد سليم رحمه الله ، يمثل قوة رجال كثيرين من رجال الدين لو أننا تتبعنا مآثرهم وأشدنا بها .

* * *

وبعد فإن الكاتب التركى الكبير قد أحسن حين كتب كتابه «أوراق الأيام» يحاول فيه أن يستثير همم المسلمين وأن يحفزهم على الجد والكفاح ومجاراة الأقوياء . ولو شاء هذا الكاتب القدير أن يصل إلى قصده من إحياء هذه الأمة بالتحدث عن مآثر رجالها وعما فيها من كامن الأصالة والخير لوجد مجال الحديث فسيحا ولكان حديثه أكثر تأثيرا فى النفوس .

يحيى الخشاب